عوائق الطلب

تأليف
عبد السلام بن برجس بن ناصر آل عبد الكريم

دار العاصمة
للنشر والتوزيع

دار أهل الحديث
الرياض

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

النشرة الأولى ١٤١٣هـ

دار أهل الحديث
للنشر والتوزيع
هاتف: ٤٣٣٠٩٦٤ ص.ب: ٣٢٩٣٩ - الرمز: ١١٤٣٨
الرياض - المملكة العربية السعودية

دار العاصمة
المملكة العربية السعودية
الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ١١٥١٥٤

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

عوائق الطلب

تأليف

عبد السلام بن برجس بن ناصر آل عبد الكريم





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، وصلَّى الله وسلم على من لا نبيّ بعده.

أمّا بعد:

فهذه كلماتٌ موجزة ـ كنت قد نشرتُ بعضها في مجلة «المجاهد» عام ١٤٠٩هـ ـ تتناول بعضَ ما يعيقُ طالب العلم عن مواصلة سيره في تحصيل العلم النافع، بالشَّرْح والبيان.

وكان الباعث على تحريرها الإشفاق على نهضتنا العلمية من الدَّخيل على أُسسها الثابتةِ التي أرساها سلفنا الصالح ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ والأخذ بِيَدِ شباب هذه النهضةِ المباركة نحو أفضل السبل لنيل العلوم الشرعية.

وقد سقتها على شكل معيقاتٍ، ليكون أدعى

لاجتنابها، وأقوى في التحذير منها، على أن في ضمن هذه المعيقات ما يهدي إلى توقِّيها، ويعين على التخلُّصِ منها، وقد أكثرتُ من النقل عن السلف الصالح فيما يتعلق بهذه المعيقات ليرتبط بهم القارىء، ويأخذ من سيرهم منهجاً له، فإنهم أهدى وأتقى.

ورحم الله ابن مجاهدٍ ـ المقرىء ـ عندما قال له رجلٌ: لِمَ لا تختار لنفسك حرفاً؟ فقال: نحنُ إلى أن نُعْمِل أنفسَنَا في حفظ ما مضى عليه أئمتنا أحوج منا إلى اختياره[1].

وختمتُها بصفحاتٍ مفيدةٍ، حرَّرها العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله ـ فيها جملةٌ من الفوائد المتعلقة بآداب المعلمين والمتعلمين، رأيتُ ضمَّها إلى هذه النبذة تكميلاً للفائدة وتعميماً للنفع.

---

(١) السير (١٥/٢٧٣).

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلَّى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

كتبه

عبد السلام بن برجس آل عبد الكريم

٢٥ رجب ١٤١٢هـ

العائق الأول

طلب العلم لغير وجه الله تعالى

عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكلِّ امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأةٍ ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

وعن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ أنه قال: (لو أن أهل العلم صانوا العلم، ووضعوه عند أهله لسادوا به أهل زمانهم. ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا لينالوا به من دنياهم، فهانوا عليهم).

---

(١) متفق على صحته.

سمعتُ نبيكم ﷺ يقول:

«من جعل الهمومَ همًّا واحداً؛ همَّ آخرتِهِ، كفاه الله همَّ دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا؛ لم يبالِ الله في أيِّ أوديتها هلك»[1].

إنّ أحقَّ ما اعتنى طالبُ العلم به معالجةُ النيَّة، وتعهُدُها بالإصلاح، وحمايتها من الفساد.

وذلك لأن العلم إنما اكتسب الفضل لكونه خالصاً لوجه الله تعالى، أما إذا كان لغيره فلا فضيلة فيه، بل هو فتنةٌ ووبالٌ، وسوء عاقبة.

وقد عُلِمَ أن قبول الأعمال متوقفٌ على إخلاصها، وصلاحها، كما قال تعالى:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ . . .﴾ الآية.

فإذا قَصَدَ الطالبُ بالعلمِ عرضَ الدنيا؛ فقد

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه (١/٩٥)؛ وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٤٤٣) عن ابن عمر نحوه، وقال: حديث صحيح الإسناد وأقره الذهبي.

عصى ربّه، وأتعبَ نَفسَه، وباءَ بإثمِهِ، ولم يأته من الدنيا إلّا ما كُتب له.

قال الحسن ـ رحمه الله ـ :

(من طلب العلم ابتغاء الآخرة أدركها، ومن طلب العلم ابتغاء الدنيا فهو حظُّه منه).

وقال الزهري: (فذاك حظه منها)[1].

وأبلغ من ذلك قول النبي ﷺ فيما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ :

«من تَعَلَّم علماً مما يُبتغى به وجه الله، لا يتعلَّمه إلَّا ليصيبَ به عرضاً من الدنيا؛ لم يجد عرف الجنَّة يوم القيامة». يعني: ريحها[2].

---

(١) أخرجه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» ص ٦٦؛ وانظر الدارمي (١/ ٧٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/٣٣٨)؛ وأبو داود في سننه (٤/ ٧١)؛ وابن ماجه في سننه (١/ ٩٢ ـ ٩٣)؛ وصححه الحاكم (١/ ٨٥)؛ وأقره الذهبي.

قال ابن عطاءٍ ـ رحمه الله ـ فيمن تعلم لغير الله:

(جعل الله العلمَ الذي علمه مَنْ هذا وصفه حجةً عليه، وسبباً في تحصيل العقوبة لديه. ولا يغرَّنَّك أن يكون به انتفاعٌ للبادي والحاضر، وفي الخبر: (إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) ومثل من تعلم العلم لاكتساب الدنيا والرفعة فيها؛ كمن رفع العذرة بملعقةٍ من الياقوت؛ فما أَشْرَفَ الوسيلة، وما أَخَسَّ المتوسَّل إليه)[1].

وقال سحنون: (كان ابن القاسم قلَّما يعرض لنا إلَّا وهو يقول: اتقوا الله فإن قليلَ هذا الأمر ـ يعني العلم ـ مع تقوى الله كثير، وكثيره مع غير التقوى قليل)[2].

وقال يوسف بن الحسين: (سمعت ذا النون المصري يقول: كان العلماء يتواعظون بثلاثٍ،

---

(١) حاشية مسند أبي يعلى (١١/ ٢٦١).

(٢) السير، للذهبي (٩/ ١٢٢).

ويكتب بعضهم إلى بعض: من أحسن سريرته؛ أحسن الله علانيته.

ومن أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس.

ومن أصلح أمر آخرته، أصلح الله أمر دنياه)[1].

وقال ابن المبارك ــ رحمه الله ــ:

(أول العلم النيَّة، ثم: الاستماع. ثم: الفهم، ثم: الحفظ، ثم: العمل، ثم: النشر)[2].

وهنا أمرٌ ينبغي التنبيه عليه، ألا وهو: أن جماعةً من السلف قالوا: (كنَّا نطلب العلم للدنيا فجرَّنا إلى الآخرة) و(طلبنا هذا الأمر وليس فيه نية ثم جاءت النية بعد) و(من طلب العلم لغير الله يأبى عليه حتى يصيره إلى الله)[3] ونحو هذه العبارات.

---

(١) السير (١٩/١٤١).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/١١٨).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢/٢٢ ــ ٢٣).

وقد شرح الذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ هذه العبارات شرحاً مفيداً فقال على قول مَعْمَر بن راشد: (كان يقال: إن الرجل ليطلب العلم لغير الله، فيأبى عليه العلم حتى يكون لله):

نَعَم يطلبه أولاً والحامل له حُبُّ العلم، وحب إزالة الجهل، وحُبُّ الوظائف، ونحو ذلك. ولم يكن علم وجوب الإخلاص فيه، ولا صدق النية. فإذا علم حاسب نفسه، وخاف من وبال قصده، فتجيئه النية الصالحة كلها أو بعضها، وقد يتوب من نيته الفاسدة ويندم. وعلامة ذلك: أنه يقْصر من الدعاوى، وحب المناظرة، ومِنْ قصد التكثُّر بعلمه، ويزري على نفسه، فإن تكثَّرَ أو قال: أنا أعلم من فلانٍ فبعداً له[1]. اهـ.

ومن ذلك ما يذكره بعض القصاص من أن رجلاً خطبَ امرأة ذات منصبٍ وجمالٍ، فأبت؛ لفقره، وقلَّةِ حسبه. ففكَّر بأيِّ الأمرين ينالها: أبالمال، أم

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٧/٧).

الحسب، فاختار الحسب، وطلب له العلم، حتى أصبح ذا مكانةٍ، فَبَعَثَتْ إليه المرأة تعرضُ نفسها.

فقال: لا أوثر على العلمِ شيئاً.

وذلك لأن العلمَ أرشده إلى تصحيح النية، والأعمال الصالحة، فدخل في عِدادِ:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

فتورَّع بتركِ امرأةٍ كان طَلَبَ العلم لأجلها، إعلاماً بصدقِ قصده، وسلامة مأربه.

وممَّا قُلْتُهُ في هذا المعنى من الأبيات:

إليكمْ يَرْفَعُ المَأْسُوْرُ شكوى
رجاءَ المَنِّ أو أَخْذِ الفِدَاءِ

فقد غَلَّتْ مَبَاسِمُكُمْ يَدَيْهِ
إلى الأذْقَانِ مِنْ بَعْدِ العَلاءِ

وقد أضحى صريعاً في هواكم
قَعِيْدَ البَيْتِ من حَرِّ التنائي

بَرَاهُ الشَّوْقُ والهِجْرَانُ مِنْكُمْ
وأَدْمَىٰ قَلْبَهُ طُوْلُ العَنَاءِ

فَسَـــلِّ القَلْبَ عنهم فـي ريــاضٍ
تُـحِـلُّ العَـبْـدَ أَطْبَـاقَ الـسَّمَـاءِ
وَتَسْمُـو بـالــوَضِيْـع إلى المَعَــالي
وتكسُـــو العُــرْيَ أثــوابَ السَّنــاءِ
وَتَـبْنِـيْ لـلفتـى ذكــراً مـشيــداً
وتـحيـي رَسْـمَــهُ طُــوْلَ الـبَقَــاءِ
ريــاضٌ بـالمعــارف قـد تَبَــاهَتْ
وفــاق جَمَــالُهَــا جِيْــدَ الـظِّبَــاءِ
إذا مــا حَـلَّهــا العُـشَّــاقُ يــومــاً
تَــوَلَّـى عـنـهــم عِشْـقُ الـنِّسَــاءِ
وقــد كـانــوا قــديمــاً في قُيُــودٍ
يَــذِلُّ لفَكِّـهــا شُــوْسُ الــدَّهَــاءِ
تَـحَلَّتْ بــالـشُّيُــوْخِ إذا تَـبَـدَّوا
أنـاروا الكَـوْنَ من شَــرَفِ الضِّيَـاء
شُيُــوْخٌ بـالمعــارفِ قــد تَغَــذَّوا
وَسِيْطَ الحِلْمُ في مجْـرى الـدِّمَــاء
لهم فـي العِـلْمِ صَــوْلَاتٌ وَسَبْـقٌ
وفـي الأفْعَــالِ جِــدٌّ في خَـفَــاءِ

وفيهـا الـطَّالبـونَ إذا غَشَـوْهـا
أثـاروا المِسْـكَ من حُسْنِ البَهَـاءِ

تـراهم نَحْـوَهَـا يَسْعَـوْنَ جَهْـداً
رجـاءَ الـمَـنِّ أو أَخْـذِ الـفِـدَاءِ

فالحذرَ الحذرَ ـ أيها الطالب ـ من الشِّرْكِ في النيـة، فإن الله تعـالى يقـول ـ كمـا في الحـديث القدسي ـ :

«أنا أغنى الشركـاء عن الشرك. من عمـل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[1].

وقـد أجمع العـارفون على أن استحكـام الهلكة إنمـا يكون إذا خَلَّى اللَّهُ بين الإنسـانِ ونفسه، عنـدئذٍ تتخطفه الشياطين، وتتشعب به المسالك، وتكون النارُ أولى به.

قال حماد بن سلمة ـ رحمه الله ـ : (من طلب

---

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٢٨٩)، عن أبـي هريرة، قـال: قال رسول الله ﷺ: «. . .».

الحديث لغير الله مَكَرَ به)[1].

وإن صلاحَ النية في العلم لأكبر معين عليه، كما قال أبو عبد الله الروذباري: (العلم موقوفٌ على العمل، والعمل موقوفٌ على الإخلاص، والإخلاص لله يورث الفهم عن الله عز وجل)[2].

وفي سنن الدارمي (١/ ٧١) عن إبراهيم النخعي أنه قال:

(من ابتغى شيئاً من العلم يبتغي به وجه الله، آتاه الله منه ما يكفيه).

تنبيهٌ: يستدلُّ بعض الناس على أن العَمَل يورثُ العلم دُوْنَ تَعَلُّمٍ، بقوله تعالى:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾.

قال في: «تفسير المنار» نقلاً عن شيخه ٣/ ١٢٨:

---

(١) رواه ابن عبد البر في «الجامع» (١/ ١٩٩).

(٢) رواه الخطيب في «الاقتضاء»، ص ٣٢.

(اشتهر على ألسنة المدَّعين للتصوُّفِ في معنى هاتين الجملتين ﴿واتَّقوا الله ويعلمكم الله﴾ أنّ التقوى تكون سبباً للعلم، وبنوا على ذلك أن سلوك طريقتهم، وما يأتون به فيها من الرِّياضة، وتلاوة الأوراد، والأحزاب: تثمر لهم العلوم الإلهية.. بدون تَعَلُّم.

ويرد استدلالهم بالآية على ذلك من وجهين:

أحدهما: أنه لا يرضى به سيبويه ــ وله الحقُّ في ذلك ــ لأنَّ عطفَ ﴿يعلمكم﴾ على ﴿اتقوا الله﴾ ينافي أن يكون جزاءً له، ومرتباً عليه. لأن العطفَ يقتضي المغايَرَةَ...

الثاني: أن قولهم هذا عبارةٌ عن جعل المسبَّب سبباً، والفرعِ أصلاً، والنَّتيجَةِ مقدِّمةً.

فإن المعروف المعقولَ أن العِلْمَ هو الذي يثمر التقوى، فلا تقوى بلا علمٍ، فالعلم هو الأصل الأوَّل، وعليه المعوَّل...). اهـ.

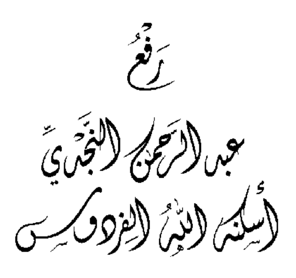
وهـذا كلامٌ جيِّـدٌ، ويضافُ إليـه إيضـاحـاً: أن العَمَـلَ يُكْسِبُ القَلْبَ قُـوَّةً إيمـانيـة، فيستـوعبُ من العلومِ، ويدركُ منَ الفوائد؛ ما لا يدركه من تـأخّر عن هذه الرُّتبة. وهذا مشاهدٌ بالعيانِ، ومُدْرَكٌ بالحِسِّ.

أما من تَعَبَّدَ لله، وترك العلم، وقال:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾.

فهو جاهلٌ، لا تُجارِيْـهِ الرَّعـاعُ في جَهْلِهِ، والله الحافظُ.

***



العائق الثاني
تــرك الـعــمـل

عــن أبـي بــرزة الأســلمــي قــال: قــال رسول الله ﷺ:

«لا تزول قدما عبدٍ يـوم القيامـة حتى يُسأَلَ عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فَعَلَ بـه، وعن مالـه من أين اكتسبـه وفيمـا أنفقـه، وعن جسمـه فيمـا أبلاه»[1].

وأخـرج الخطيب نحـوه وفيه: **«وعن علمـه ماذا عمل فيه»**[2].

---

(١) رواه الترمذي في سننـه (٤/٦١٢) وقال: حـديث حسن صحيح.

(٢) «اقتضاء العلم العمل».

وفيه عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: (لا تكون عالماً حتى تكون متعلِّماً، ولا تكون بالعلم عالماً حتى تكون به عاملاً).

وفيه عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: (هَتَفَ العلم بالعمل فإن أجابه وإلَّا ارتحل).

وعن الفضيل بن عياض أنه قال: (لا يزال العالم جاهلاً بما علم حتى يَعْمَل به، فإذا عمل به كان عالماً).

العَمَلُ بالعِلْمِ مدعاة لحفظه وثباته، كما أن عدم العمل مدعاةٌ لضياع العلم ونسيانه، ولذلك قال الشعبي ـ رحمه الله ـ (كنّا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به، وكنّا نستعين على طلبه بالصوم)[1].

وقال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ:

---

(١) رواه ابن عبد البر في «الجامع» (٢/١١)، ونحوه عن وكيع كما في «الجامع» (٢/١٣٢).

(إني لأحسب العبد ينسى العلم كان يعلمه بالخطيئة يعملها).

وقد كان دأب السلف الصالح العمل بالعلم، وبذلك حازوا قصبات السبق، وبورك في علمهم، ولذا قال أبو عبد الرحمن السلمي ـ رحمه الله تعالى ـ : (حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً).

وترك العمل بالعلم على قسمين:

الأول: ترك الائتمار بالواجبات الشرعية، وترك الانتهاء عن المحرمات الشرعية، فهذا كبيرة من الكبائر، وعليه تحمل الآيات والأحاديث المتوعدة من ترك العمل بالعلم.

القسم الثاني: ترك المستحبات، وترك اجتناب المكروهات فهذا قد يذمُّ لكن لا يدخل في أحاديث الوعيد، إلَّا أن العالم وطالب العلم ينبغي لهما

المحافظة على السنن، واجتناب المكروهات[1]. والله أعلم.

قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ :

(والمسكين كل المسكين من ضاع عمره في علم لم يعمل به، ففاته لذات الدنيا، وخيرات الآخرة؛ فقدم مفلساً مع قوة الحجة عليه). اهـ[2].

*
**

---

(١) بَسَطْتُ الكلام على هذا القسم في كتابي: «ضرورةُ الاهْتِمَامِ بالجزئيات الشَّرْعِيَّةِ عِلْماً وعَمَلاً».

(٢) «صيد الخاطر»، ص ١٤٤.

العائق الثالث
الاعتماد على الكتب دون العلماء

يرى بعض الطلبة من نفسه قدرةً على أخذ العلم من الكتب دون الرجوع إلى العلماء في توضيح عباراتها، وحلِّ مشكلاتها. وهذه الثقةُ بالنّفْسِ داءٌ طالما رأينا صرعاهُ منبوذين، وعن عِدَاد أهل العلم مُبعدين، ما أكثر خطأهم، وأبعد نجعتهم، وأشنع تناقضهم.

قال الإمام الشافعي ــ رحمه الله تعالى ــ : (من تفقّه من بُطُوْنِ الكتب ضَيَّعَ الأحكام).

وكان بعضهم يقول: (من أعظم البَلِيَّة تَشَيّخ الصحيفة). أي الذين تعلموا من الصحف[1].

---

(١) تذكرة السامع والمتكلِّم، ص ٨٧.

قال الفقيه سليمان بن موسى: (كان يقال: لا تأخذوا القرآن من المُصْحَفِيّين، ولا العلم من الصَّحفيين).

وقال الإمام سعيد بن عبد العزيز التنوخي ـ وكان يُسَاوَى بالأوزاعي ـ: كان يقال: (لا تحملوا العلم عن صحفي، ولا تأخذوا القرآن من مصحفي)[1].

وقديماً قيل: (من كان شيخه كتابه، كان خطؤه أكثر من صوابه).

ولقد أحسن أبو حَيَّان النحوي حينما قال:

يظن الغُمْرُ أن الكُتْبَ تُجْدِيْ
أخا فَهْمٍ لإدراك العُلُوْمِ
وما يدري الجهولُ بأَنَّ فيها
غَوَامِضَ حَيّرتْ عَقْلَ الفَهِيْمِ
إذا رمتَ العلومَ بِغَيْرِ شَيْخٍ
ضَلَلْتَ عن الصِّراط المُسْتَقِيْمِ

(١) تصحيفات المحدثين، للعسكري (١/٦ ـ ٧).

وَتَـلْتَـبِسُ الأُمُـوْرُ عَـلَيْـكَ حـتـى
تكـونَ أضَـلَّ من تُـوْمـا الحَكِيْمِ

وقـد شرح العلمـاءُ المعنى الذي من أجله أُلـزم الطالب أخذَ العلم من أفـواه العلماء، فمن ذلـك قول ابن بطلان ــ رحمه الله ــ : (يـوجد في الكتـاب أشياء تصـدّ عن العلم، وهي معدومـة عنـد المعلم، وهي: التصحيف العـارض من اشتبـاه الحـروف مـع عـدم اللفظ، والغلط بـروغـان البصـر. . . وقلة الـخبـرة بالإعراب، أو فساد الموجـود منه، وإصـلاح الكتاب، وكتابة ما لا يقرأ، وقراءة ما لا يكتب، ومذهب صاحب الكتـاب، وسقم النسـخ، ورداءة النقـل، وإدمـاج القـارىء مواضـع المقاطـع، وخلط مبـادىء التعليم، وذكر ألفاظٍ مصطلح عليها في تلك الصناعة. . . فهذه كلها معوّقة عن العلم، وقد استراح المتعلم من تكلّفها عند قراءته على المعلم.

إذا كان الأمر على هـذه الصورة؛ فـالقراءة على العلماء أجدى وأفضل من قراءة الإنسـان لنفسه، وهـو ما أردنا بيانه). اهـ.

وقد ذكر قبل هذا الوجه؛ خمسةَ أوجهٍ في بيان العلل التي من أجلها صار التعلم من أفواه الرجال أفضل من التعلم من الصحف، فلتنظر في «شرح إحياء علوم الدين»[1].

***

(١) «شرح إحياء علوم الدين» للزَّبيدي (١/ ٦٦).

العائق الرابع
أَخْذ العلم عن الأصاغر

لقد فشت ظاهرة أخذ العلم عن صغار الأسنان بين طلاب العلم في هذا الزمن.

وهذه الظاهرة ـ في الحقيقة ـ داءٌ عضال، ومرضٌ مزمن، يعيق الطالب عن مراده، ويعوجّ به عن الطريق السليم الموصل إلى العلم.

وذلك لأن أخذ العلم عن صغار الأسنان؛ الذين لم ترسخ قدمهم في العلم، ولم تشب لحاهم فيه، مع وجود من هو أكبر منهم سناً، وأرسخ قدماً؛ يضعف أساس المبتدىء، ويحرمه الاستفادة من خبرة العلماء الكبار، واكتساب أخلاقهم التي قَوَّمَهَا العلم والزمن. . . إلى غير ذلك من التعليلات التي يوحي بها أثر ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ حيث يقول:

(ولا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، وعن أمنائهم، وعلمائهم، فإذا أخذوه عن صغارهم، وشرارهم هلكوا).

وثبت الحديث عن أبي أمية الجمحي أن رسول الله ﷺ قال:

«إن من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر».

وقد اختلف الناس في تفسير: «الصغار» هنا على أقوال ذكرها ابن عبد البرّ في «الجامع» (١/١٥٧)؛ والشاطبي في «الاعتصام» (٢/٩٣).

وقد ذهب ابن قتيبة ــ رحمه الله تعالى ــ إلى أن الصغار هم صغار الأسنان، فقال على أثر ابن مسعود الآنف الذكر: (يريد لا يزال الناس بخير ما كان علماؤهم المشايخ، ولم يكن علماؤهم الأحداث، لأن الشيخ قد زالت عنه متعة الشباب، وحِدَّته، وعجلته، وسفهه، واستصحب التجربة والخبرة، ولا يدخل عليه في علمه الشبهة، ولا يغلب

عليه الهوى، ولا يميل به الطمع، ولا يستزله الشيطان استـزلالَ الحَدَثِ، فمـع السِّنّ: الوقـار، والجـلالـة، والهيبة.

والحَدَثُ قد تدخل عليه هذه الأمـور التي أمنتْ علـى الشيـخ، فـإذا دخلت عـليـه، وأفتـى هـلك وأهلك). اهـ[1].

وقـد روى ابن عبد البـر عن عمـر بن الخـطاب ــ رضي الله عنـه ــ أنه قـال: «قد علمتُ متى صـلاح الناس، ومتى فسادهم: إذا جاء الفقه من قبـل الصغير استعصى عليه الكبير، وإذا جاء الفقه من الكبير تابعـه الصغير، فاهتديا».

وروى ابـن عـبـد الـبـر ــ أيـضـاً ــ عـن أبـي الأحوص عن عبد الله قال: (إنكم لن تزالوا بخير ما دام العلم في كباركم، فإذا كان العلم في صغـاركم سفه الصغيرَ الكبيرُ).

ففي هـذين الأثـرين تعليـلٌ لعـدم الأخـذ عن

---

(١) نصيحة أهل الحديث، للخطيب البغدادي، ص ١٦.

«الصغير» آخرَ غيرَ الذي ذكره ابنِ قتيبة. وهو: خشية ردّ العلم إذا جاء من الصغير.

وعلى كلٍّ فإن لفظة «الصغير» عامةٌ تتناول: الصغير حساً ومعنىً.

وهذا الحكم ليس على إطلاقه في «صغير السِّن» فقد أفتى ودرّس جماعة من الصحابة والتابعين في صغرهم، بحضرة الأكابر. إلَّا أن هؤلاء يندر وجود مثلهم فيمن بعدهم، فإن وُجِدُوا، وعُلِمَ صلاحهم، وسُبِرَ علمهم فظهرت رصانته، ولم يوجد من الكبار أحدٌ يؤخذ عنه العلومَ التي معهم؛ وأُمِنَتِ الفِتْنَةُ؛ فليؤخذ عنهم.

وليس المراد أن يهجر عِلْمُ الحَدَثِ مع وجود الأكابر كَلَّا، وإنما المراد إنزال الناس منازلهم. فحقُّ الحَدَثِ النَّابغِ أن ينتفع به في المدارسة، والمذاكرة، والمباحثة... أما أن يصدّر للفتوى، ويكتب إليه بالأسئلة، فلا، وألف لا، لأن ذلك قتلٌ له، وفتنةٌ، وتغرير.

قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ : (لو رأيتُ رجلاً اجتمع الناس حوله لقلتُ: هذا مجنون، من الذي اجتمع الناس حوله لا يحب أن يجوّد كلامه لهم).

وقال أيضاً: (بلغني أن العلماء فيما مضى كانوا إذا تعلموا عملوا، وإذا عملوا شغلوا، وإذا شغلوا فقدوا، وإذا فقدوا طلبوا، فإذا طلبوا هربوا)[١].

فيا أيها الطلاب: إن أردتم العلم من منابعه فهاؤهم العلماء الكبار، الذين شابت لحاهم، ونحلت جسومهم، وذبلت قواهم في العلم والتعليم، الزموهم قبل أن تفقدوهم، واستخرجوا كنوزهم قبل أن توارى معهم، وفي الليلة الظلماء يفتقد البدرُ.

تنبيه: في هذا الزمان اخْتَلَّ معيارُ كثيرٍ من العامَّةِ في تقييم العُلَماءِ، فجعلوا كلَّ من وَعَظَ موعظةً بليغةً، أو ألقى محاضرات هادفة، أو خَطَبَ الجمعةَ

---

(١) السير (٨/٤٣٤).

مرتجلاً. . . عالماً يرجع إليه في الإفتاء، ويُؤْخَذُ العلمُ عنه.

وهـذه رَزِيَّةٌ مُـؤْلِمَةٌ، وظـاهـرةٌ مُـزْريـةٌ، تـطاير شـررُهَا، وَعَمَّ ضـرَرُهَا، إذْ هي من إسْنَـادِ العلمِ إلى غيـرِ أهله، وإذا وُسِـدَ الأمْـرُ إلى غيـرِ أهلِهِ فـانتـظِر السَّاعة.

فليحذر الطالب من أخـذِ العِلْمِ عن هؤلاءِ، إلاَّ إذا كانوا من أَهْلِ العلم المعروفين، فما كلُّ من أجـاد التَّعْبِيْرَ كان عالماً، ولا كلُّ من حَرَفَ وُجُوْهَ النَّاسِ إليه بـالوَقِيْعَـةِ في ولاةِ أُمُوْرِ المسلمين، أو بـذكْرِ (النِّسَب) لوفيات الإِيْدِز، ونحوها؛ يكون عالماً.

وليس معنى مـا تقـدَّم ـ كمـا يَفْهَمُ البَعْضُ ـ عَـدَمَ الاستماع إليهمْ، أو الانتفـاع بمواعـظهم، كلاّ، إنمـا المرادُ عـدمَ أخذِ العلمِ الشَّـرْعِيِّ عنهم، وعـدم رفعهم إلى منازل العلماء، والله الموفق.

***

العائق الخامس

عدم التدرج في العلم

لا ترى أحداً من العلماء ينازع في مبدأ «التدرّج» لأنه الوسيلةُ الناجحة لأخذ العلم، وفهمه.

وهذا مأخوذٌ من كتاب الله تعالى، قال تعالى:

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾.

وقال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

قال الزَّبيدي نقلاً عن «الذريعة» في وظائف المتعلم: (يجب أن لا يخوض في فَنٍّ حتى يتناول من الفنّ الذي قبله على الترتيب بُلْغَتَهُ، ويقضي منه حاجته، فازدحام العلم في السمع مضلة الفهم).

وعلى هذا قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾.

أي لا يتجاوزون فنًّا حتى يُحْكِمُوْهُ علماً وعملاً، فيجب أن يقدم الأهم فالأهم من غير إخلال في الترتيب.

وكثير من الناس مُنِعوا الوصول لتركهم الأصول. وحقه أن يكون قصده من كل علمٍ يتحراه التَّبلُّغ به إلى ما فوقه، حتى يبلغ النهاية. اهـ[1].

والتدرّج يكون في أمرين:

الأول: تدرُّجٌ بين الفنون.

الثاني: تدرُّجٌ في الفنِّ الواحد.

وكلا الأمرين يخضع لاجتهاد المعلِّم، وطبيعة المكان، ولذا فإن إشارات العلماء في التدرج تختلف باختلاف مذاهبهم، وأماكنهم، وسأضع بين يدي القاريء نماذج من توجيهاتهم ليأخذ ما يلائمه، بعد موافقة شيخه ومعلمه.

---

(١) «شرح الإحياء» (١/٣٣٤).

روى ابن المديني عن عبد الوهاب بن همام عن ابن جريج قال: (أتيت عطاءً، وأنا أريد هذا الشأن، وعنده عبد الله بن عبيد بن عمير. فقال لي ابن عمير: قرأتَ القرآن؟ قلتُ لا. قال: فاذهب فاقرأه، ثم اطلب العلم. فذهبت فغبرتُ زماناً، حتى قرأت القرآن، ثم جئت عطاءً، وعنده عبد الله، فقال: قرأتَ الفريضة؟ قلت: لا. قال فتعلم الفريضة، ثم اطلب العلم. قال: فطلبت الفريضة ثم جئت. فقال: الآن فاطلب العلم)[1].

وقال أبو العيناء: أتيتُ عبد الله بن داود، فقال: ما جاء بك؟ قلت: الحديث قال: اذهب فتحفظ القرآن. قلت: قد حفظت القرآن ـ قال: اقرأ.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ . . .﴾.

فقرأت العُشْرَ حتى أنفذته. فقال لي: اذهب الآن فتعلم الفرائض. قلت: قد تعلمت الصُّلْب، والجدّ، والكُبَر. قال: فأيما أقرب إليك ابن أخيك،

---

(١) السير (٦/٣٢٧).

أو عمك؟ قلت: ابن أخي. قال: وَلِمَ؟ قلت: لأن أخي من أمي، وعمي من جدي. قال: اذهب الآن فتعلم العربية. قال قد علمتها قبل هذين. قال: فلِمَ قال عمر ـ يعني حين طعن ـ يا لَلَّه ولِلمسلمين، لم فتح تلك، وكسر هذه؟ قلت: فتح تلك اللام على الدعاء، وكسر هذه على الاستغاثة، والانتصار.

فقال: لو حدّثتُ أحداً لحدَّثتك[1].

قال أبو عمر ابن عبد البر ـ رحمه الله تعالى ـ[2] طلب العلم درجات ومناقل ورُتَبٌ، لا ينبغي تعدِّيها، ومن تعدَّاها جملةً فقد تعدى سبيل السلف ـ رحمهم الله ـ ومن تعدى سبيلهم عامداً ضَلَّ، ومن تعداه مجتهداً زلّ.

فأول العلم: حفظ كتاب الله جل وعزّ، وتفهمه، وكل ما يعين على فهمه، فواجب طلبه. ولا أقول: إن حفظه كله فرض، ولكن أقول: إن ذلك

---

(١) السير (٩/٣٥١).

(٢) الجامع (٢/١٦٦).

واجب لازم على من أحب أن يكون عالِماً، ليس من باب الفرض.

فمن حفظه قبل بلوغه ثم فرغ إلى ما يستعين به على فهمه من لسان العرب؛ كان له ذلك عوناً كبيراً على مراده منه، ومن سنن رسول الله ﷺ.

ثم ينظر في ناسخ القرآن ومنسوخه وأحكامه، ويقف على اختلاف العلماء واتفاقهم في ذلك، وهو أمر قريب على من قربه الله عليه.

ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله ﷺ فبها يصل الطالب إلى مراد الله جل وعز في كتابه، وهي تفتح له أحكام القرآن فتحاً.

وفي سير رسول الله ﷺ تنبيه على كثير من الناسخ والمنسوخ في السنن.

ومن طلب السنن فليكن معوله على حديث الأئمة الثقات الحفاظ... إلى أن قال ص ١٧٢:

فعليك يا أخي بحفظ الأصول، والعناية بها.

واعلم أن من عُنِيَ بحفظ السنن والأحكام

المنصوصة في القرآن، ونظر في أقاويل الفقهاء فجعله عوناً له على اجتهاده، ومفتاحاً لطرائق النظر، وتفسيراً لجمل السنن المحتملة للمعاني، ولم يقلد أحداً منهم تقليد السنن، التي يجب الانقياد إليها على كل حال دون نظر، ولم يرح نفسه مما أخذ العلماء به أنفسهم من حفظ السنن وتدبرها، واقتدى بهم في البحث والتفهم والنظر وشكر لهم سعيهم فيما أفادوه ونبهوا عليه وحمدهم على صوابهم ـ الذي هو أكثر أقوالهم ـ ولم يبرأهم من الزلل، كما لم يبرئوا أنفسهم منه.

فهذا هو الطالب المتمسك بما عليه السلف الصالح، وهو المصيب لحظِّه، والمعاين لرشده، والمتبع لسنة نبيه ﷺ، وهدي صحابته ـ رضي الله عنهم... إلخ. اهـ.

وقال ابن الجوزي:

وقد عُلِمَ قِصَرُ العمر، وكثرة العلم: فيبدىء ـ أي الطالب ـ بالقُرآن وحفظه، وينظر في تفسيره نظراً متوسطاً لا يخفى عليك بذلك منه شيء.

وإن صحَّ له قراءة القراءات السبعة، وأشياء من النحو وكتب اللغة، وابتدأ بأصول الحديث من حيث النقل كالصحاح والمسانيد والسنن، ومن حيث علم الحديث كمعرفة الضعفاء والأسماء، فلينظر في أصول ذلك. وقد رتَّبت العلماء من ذلك ما يستغني به الطالب عن التعب. ولينظر في التواريخ ليعرف ما لا يستغني عنه كنسب رسول الله ﷺ، وأقاربه، وأزواجه، وما جرى له. ثم لِيُقْبِلْ على الفقه فلينظر في المذهب والخلاف، وليكن اعتماده على مسائل الخلاف، فلينظر في المسألة، وما تحتوي عليه، فيطلبه من مظانه، كتفسير آية، وحديث، وكلمة لغة.

ويتشاغل بأصول الفقه، وبالفرائض، وليعلم أن الفقه عليه مدار العلوم. اهـ[1].

هذه شذراتٌ من توجيهات العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ لطالب العلم، وهي خلاصة تجاربهم في طريق التعلم، أهدوها لنا حفاظاً على وقتنا، ورعايةً

---

(١) من «صيد الخاطر»، ص ١٦٩.

لتأسيسنا على النهج القويم، فلا نَحِدْ عن طريقهم، لئلا يقع الخللُ في معلوماتنا، فتخوننا ونحن أحوج ما نكون إليها.

من لم يشافه عالِماً بأصوله
فيقينه في المشكلات ظنونُ

ورحم الله ابن عبد البر إذْ نعى طلاب العلم في زمنه فقال: واعلم ـ رحمك الله ـ أن طلب العلم في زماننا هذا، وفي بلدنا؛ قد حادَ أهلُهُ عن طريق سلفهم، وسلكوا في ذلك ما لم يعرفه أئمتهم، وابتدعوا في ذلك ما بان به جهلهم وتقصيرهم عن مراتب العلماء قبلهم. اهـ[1].

وقد رتب ابن الجوزي جدولاً للطالب يبلغ به المنتهى، فقال: وأول ما ينبغي أن يُكَلَّف ـ أي طالب العلم في صباه ـ حفظ القرآن متقناً، فإنه يثبت ويختلط باللحم والدم، ثم مقدمة في النحو يعرف بها اللحن، ثم الفقه مذهباً وخلافاً، وما أمكن بعد هذا

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٦٩).

من العلوم فحفظه حسن. اهـ[١].

ويضاف إلى ذلك النظر في متون الحديث ومصطلحه، ليكون الفقه مبنياً على القرآن، وما صح عن الرسول ﷺ، فيبلغ صاحبه الذروة في الفضائل.

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ:

أما العلم النافع فهو: العلم المُزَكِّيْ للقلوب والأرواح، المثمر لسعادة الدارين، وهو ما جاء به الرسول ﷺ من حديث وتفسير وفقه وما يعين على ذلك من علوم العربية بحسب حالة الوقت، والموضع الذي فيه الإنسان.

وتَعيينُ ما يشتغل به من الكتب يختلف باختلاف الأحوال والبلدان.

والحالة التقريبية في نظرنا هنا: أن يجتهد طالب العلم في حفظ مختصرات الفنّ الذي يشتغل به، فإن تعذَّر أو قصر عليه حفظه لفظاً؛ فليكرره كثيراً

(١) صيد الخاطر، ص ٢٤٤.

حتى ترسخ معانيه في قلبه، ثم تكون باقي كتب الفن كالتوضيح والتفسير لذلك الأصل الذي أدركه وعرفه.

فلو حفظ طالب العلم «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية. و«ثلاثة الأصول» وكتاب «التوحيد» للشيخ محمد.

وفي الفقه «مختصر الدليل»[(١)] و«مختصر المقنع»[(٢)].

وفي الحديث: «بلوغ المرام».

وفي النحو: «الآجرومية».

واجتهد في فهم هذه المتون، وراجع عليها ما تيسر من شروحها، أو كتب فنّها، فإنها كالشروح لها. لأن طالب العلم إذا حفظ الأصول، وصار له ملكة تامة في معرفتها هانت عليه كتب الفنّ كلها الصغار والكبار. ومن ضيع الأصول حرم الوصول.

فمن حرص على هذه العلوم النافعة، واستعان

---

(١) دليل الطالب، لمرعي الكرمي.

(٢) زاد المستقنع، للحجاوي.

بـالله؛ أعانـه، وبـارك لـه في علمـه، وطـريقـه الـذي سلكه. ومن سلك في طلبه للعلم غير الطريقة النافعـة فـاتت عليه الأوقـات، ولم يدرك إلَّا العنـاء، كمـا هـو معروف بالمشاهدة والتجربة. اهـ[1].

فهـذا اقتـراحٌ مفصَّـلٌ من الشيـخ ــ رحمــه الله تعالى ــ حريٌ بالاعتناء. وقد استقرينا تراجم علمـائنا فمـا منهم من خرج عن هـذا السبيل، وبـذلك حـازوا قصبات السبق.

وليكن معلوم لـدى طـالب العلم أن حثَّنـــا على حفظ مختصــرٍ في الفقــه ليس دعــوة إلـى التـقليــد المـذمـوم، وإنمـا هـو لفـوائـد شتى، منهـا: امتـلاك الطالب أساساً قوياً في هذه المـادة الشاهقـة الارتفاع، وحصر ذهنه في المسائل الموجودة في هـذا المختصر لئـلا تختلط عليه المسـائل فـلا يستـطيـع التمييـز بين أحكـامها، والسعي في تـدرجـه إلى مـرحلة الاجتهـاد درجةً درجةً، وأول السلم هذه المختصرات.

---

(١) الفتاوى السعدية، ص ٣٠ ــ ٣١.

وليس معنى حفظها العمل بكلِّ ما فيها، إذْ لا بدَّ من معلِّم تقرأ عليه، فيوضح غامضها، ويحل مشكلها، ويبين الراجح من المرجوح فيها.

والدخول في هذا المبحث مما يستدعي إطالةً لا نريدها هنا، إلَّا أنني أنقل أحرفاً عن المنصف الكبير المربي الفاضل العلامة الذهبي ـ رحمه الله ـ إذْ جعل لكلِّ إنسان منزلته، فقال: من بلغ رتبة الاجتهاد، وشهد له بذلك عِدَّة من الأئمة، لم يسغ له أن يقلِّدَ.

كما أن الفقيه المبتدىء، والعاميّ الذي يحفظ القرآن أو كثيراً منه لا يسوغ له الاجتهاد أبداً، فكيف يجتهد، وما الذي يقول؟ وعلامَ يبني؟ وكيف يطيرُ ولما يُرَيِّش؟

والقسم الثالث: الفقيه المنتهي، اليقظ الفهم المحدِّث، الذي قد حفظ مختصراً في الفروع، وكتاباً في قواعد الأصول، وقرأ النحو، وشارك في الفضائل، مع حفظه لكتاب الله، وتشاغله بتفسيره، وقوة مناظرته، فهذه رتبة من بلغ الاجتهاد المقيَّد،

وتأهل للنظر في دلائل الأئمة، فمتى وضح له الحق في مسألة، وثبت فيها النصّ، وعمل به أحد الأئمة الأعلام... فليتبع فيها الحق، ولا يسلك الرخص، وليتورع، ولا يسعه فيها بعد قيام الحجة عليه تقليدٌ. اهـ[1].

فرحم الله امرَأً عرف قدر نفسه، ولم يرفعها فوق منزلتها، وأخذ العلم على طريقة سلفه. والله المستعان.

***

---

(١) السير (١٨/ ١٩١).

العائق السادس
الغرور والعجب والكِبْر

معصية الله تعالى عائقةٌ عن نيل العلم الشرعي، لأنه نور الله يقذفه في أفئدة من شاء من عباده، ولا يجتمع في قلبٍ نورٌ وظلمة، ولذا قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إني لأحسب أن الرجل ينسى العلم قد علمه بالذنب يعلمه[1].

ورحم الله الشافعي حيث قال:

شكوتُ إلى وكيع سوء حفظي
فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نورٌ
ونورُ الله لا يهدى لعاصِ

(١) الجامع (١/١٩٦).

وإن أقبح ما تلبّس به طالب العلم من المعاصي ـ وكلها قبيح ـ التكبُّر والتعاظم والغرورُ، فيزدري هذا، ويترفع عن هذا، ويتبختر في المشي، ويتشدَّق في الكلام، إلى غير ذلك من صفاتِ العُجْب بالنفسِ، التي نهى الله تعالى عنها في قوله:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

المَرَحُ: التبختر.

وقال تعالى:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

«بينما رجل يمشي في حُلَّةٍ تعجبه نفسه، مرجَّلٌ رأسه، يختال في مشيته، إذْ خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة».

قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ:

أفضل الأشياء التزيُّد من العلم، فإنه من اقتصر على ما يعلمه فظنه كافياً استبدّ برأيه، فصار تعظيمه لنفسه مانعاً من الاستفادة.

قال: غير أن اقتصار الرجل على علمه إذا مازجه نوعُ رؤية للنفس حبس عن إدراك الصواب، نعوذ بالله من ذلك. اهـ[1].

وصدق علي بن ثابت حينما قال:

العلم آفته: الإعجابُ والغضب
والمال آفته: التبذير والنهب

قال أيوب السختياني: ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعاً لله.

وقالوا: المتواضع من طلاب العلم أكثر علماً، كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء.

وقيل لحكيمٍ: ما النعمة التي لا يحسد عليها صاحبها؟ قال: التواضع. قيل له: فما البلاء الذي

---

(١) من «صيد الخاطر»، ص ١١١.

لا يرحم عليه صاحبه؟ قال: العجب[1].

فليحذر الطالب من هذه الصفات الذميمة، التي يمقتها الله، ويمقتها المؤمنون، فإن من تواضع لله رفعه، وضده: من لم يتواضع لله سَفُلَ.

وإذا حدَّثته نفسه بشيءٍ من ذلك فليذكر مآله ومصيره، وليعلم أن هناك من هو أصغر منه سناً، وأكبر منه علماً.

ولقد بلينا في هذا الزمن بشرذمةٍ قليلةٍ ــ ولله الحمد ــ يقرؤون كتاباً أو كتابين، ويحفظون مسألةً أو مسألتين، ثم بعد يومٍ أو يومين ــ من أعمارهم في الطلب ــ يصبحون مجتهدين، وليتهم يقتصرون على هذا الخيال الكاسد، بل يستصغرون غيرهم من العلماء، بَلْهَ طلبة العلم والدعاة، ويرون لأنفسهم مكاناً عالياً لا يصل إليه أحد، يظهر ذلك على ملابسهم، ومشيهم، وكلامهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ما أعظم ضررهم، وأقلَّ نفعهم، وأمتنَ

---

(١) الجامع (١/١٤٢).

جهلهم، نسأل الله تعالى أن يهديهم سواء السبيل.

وإلى هؤلاء أسوق فَصْلاً نفيساً لابن الجوزي ــ رحمه الله ــ حيث يقول:

انتقدت على أكثر العلماء والزهاد: أنهم يبطنون الكبر.

فهذا ينظر في موضعه وارتفاع غيره عليه، وهذا لا يعود مريضاً فقيراً يرى نفسه خيراً منه.

وقلَّ مَن رأيت إلَّا وهو يرى نفسه.

والعجب كل العجب ممن يرى نفسه، أَتراهُ بماذا رآها!

إن كان بالعلم فقد سبقه العلماء، وإن كان بالتعبد فقد سبقه العباد. . . إلى أن قال:

ومن تلمح خصال نفسه وذنوبها علم أنه على يقين من الذنوب، والتقصير، وهو من حالِ غيره على شك.

فالذي يحذّر منه: الإعجاب بالنفس، ورؤية

التقدم في أحوال الآخرة، والمؤمن الحق لا يزال يحتقر نفسه.

وقد قيل لعمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ إنْ متّ ندفنك في حجرة رسول الله ﷺ؟ فقال: لأنْ ألقى الله بكل ذنب غير الشرك؛ أحبُّ إليَّ من أن أرى نفسي أهلاً لذلك. اهـ[1].

قال في تهذيب الإحياء:

والكبر بالعلم، هو أعظم الآفات وأغلب الأدواء، وأبعدها عن قبول العلاج، إلَّا بشدةٍ شديدةٍ، وجهدٍ جهيدٍ، وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله، عظيم عند الناس، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما.

ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلَّا بمعرفة أمرين:

أحدهما: أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عُشْره من

---

(١) صيد الخاطر، ص ٢٨٢.

العـالـم، فـإن من عصى الله تعـالى عن معـرفـةٍ وعلم فجنـايتـه أفحش، إذ لـم يقضِ نعمـة الله عليـه في العلم.

الأمر الثاني: أن العالم يعرف أن الكبـر لا يليق إلَّا بالله عز وجل وحده، وأنه إذا تكبَّر صار ممقوتاً عند الله بغيضـاً. اهـ[1] لحـديث أبـي هـريـرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

«قال الله تعالى: العزّ إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني عذَّبته»[2].

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبـي ﷺ قال:

«لا يدخل الجنة من كان في قلبـه مثقال ذرة من كبر».

فقـال رجلٌ: إن الـرجل يحب أن يكـون ثـوبـه حسناً، ونعله حسنةً؟ قال:

---

(١) تهذيب الإحياء (٢/١٣٦).

(٢) رواه مسلم.

«إن الله جميل يحب الجمال، الكِبْرُ بَطَر الحقّ، وغمط الناس»[1].

غمط الناس: احتقارهم.

*
**

(١) رواه مسلم.

العائق السابع
استعجال الثمر

يَظنّ بعض الطلبة أنَّ العلم لقمة سائغة، أو جرعة عذبة، سرعان ما تظهر نتائجها، وتتبين فوائدها.

فيؤمل في قرارة نفسه أنه بعد مضي سنة أو أكثر أو أقل ـ من عمره في الطلب ـ سيصبح عالِماً جهبذاً، لا يدرك شأوه، ولا يشقّ غباره.

وهذه نظرة خاطئة، وتصور فاسد، وأمل كاسد، أضراره وخيمة، ومفاسده عظيمة، إذ يفضي بصاحبه إلى ما لا تحمد عقباه، من القول على الله بغير علم، والثقة العمياء بالنفس، وحب العلو والتصدر. . . وينتهي مطافه بين هذه الأشياء إلى هجر الانتساب للعلم وأهله.

ولقد أصاب المأمون عندما قال ــ متهكماً بهذا الضرب من الطلبة ــ: يطلب أحدهم الحديث ثلاثة أيام ثم يقول: أنا من أهل الحديث[1].

والناظر إلى حال السلف يرى عجباً من صبرهم على مرارة التحصيل، وطول الجادة، لا يفترون ولا يتقاعسون ولا يستكبرون، شعارهم: «العلم من المهد إلى اللحد». . «العلم من المحبرة إلى المقبرة».

قال الإمام ابن المديني: قيل للشعبي: من أين لك هذا العلم كلّه؟ قال: (بنفي الاعتماد، والسير في البلاد، وصبر كصبر الجماد، وبكور كبكور الغراب)[2].

وقال الإمام الشافعي: (لا يبلغ في هذا الشأن رجلٌ حتى يضرّ به الفقر ويؤثره على كلِّ شيء)[3].

---

(١) السير (١٠/٨٧٦).
(٢) التذكرة، للذهبي (ترجمة الشعبي عامر بن شراحبيل).
(٣) السير (١٠/٨٩).

وقال ابن حمزة: (قال لي يعقوب بن سفيان ـ الحافظ الإمام ـ: أقمت في الرحلة ثلاثين سنة)[1].

وقال يحيى بن أبي كثير: (لا يستطاع العلم براحة الجسد)[2].

وقال ابن الحداد المالكي: (ما للعالم وملائمة المضاجع)[3].

فعلى طالب العلم أن يتأسَّى بهؤلاء الأئمة، وأن يحذو حذوهم، حتى ينال مناه، ويدرك بغيته، فإن منهجهم سليم، وطريقهم قويمٌ، وما حصل لهم ما حصل من ذكرٍ حَسَن، ونفع مستمر للمسلمين إلاَّ بالصبر والمثابرة، وازدراء كل ما يبذل من مالٍ، ووقتٍ في سبيل العلم والمعرفة.

وختاماً أذكر محاورة بين اثنين، تبين قيمة

---

(١) التذكرة، للذهبي (ترجمة مكحول).
(٢) الجامع (١/ ٩١).
(٣) السير (١٤/ ٢٠٦).

العلم، ومكانته العالية، وأنه لا يحصل إلاَّ لمن بذل فيه كلَّ شيءٍ، على حدِّ قولهم «أعطِ العلم كلَّك يعطيك بعضه».

قال رجلٌ لآخر: بِمَ أدركتَ العلم؟

قال: طلبته فوجدته بعيد المرام، لا يصاد بالسهام، ولا يرى في المنام، ولا يورث عن الآباء والأعمام.

فتوسلت إليه بافتراش المَدَرِ، واستناد الحجر، وإدمان السهر، وكثرة النظر، وإعمال الفكر، ومتابعة السفر، وركوب الخطر: فوجدته شيئاً لا يصلح إلاَّ للغرس، ولا يغرس إلاَّ في النفس، ولا يسقىٰ إلاَّ بالدرس.

أرأيت من أشغل نهاره بالجمع، وليله بالجماع، هل يخرج من ذلك فقيهاً؟ كلاّ والله.

إن العلم لا يحصل إلاَّ لمن اعتضد الدفاتر، وحمل المحابر، وقطع القفار، وواصل في الطلب

الليل والنهار[1].

ولعل في هذه المحاورة الظريفة ما يزيل الصورة المترسبة في أذهان بعض الطلبة: من أن العلم ينال في مدّة وجيزة، وفترة قصيرة، فيواصلوا جهودهم، ويحتقروا مبذولهم، في طريق العلم والتعلم، حتى يفتح الله عليهم أبواب المعرفة والعلم فيصبحوا قادةً في العلم، أئمة في الهدى.



---

(١) ينظر مقامات بديع الزمان (المقامات العلمية)، والزيادات التي هنا من بعض شيوخنا.

العائق الثامن
دنــوّ الهــمّــة

نـرى بين صفوف طلبـة العلم أنـاسـاً يمتلكـون مـواهب جليلة، وقـدرات هـائلة، تؤهلهم للزعـامـة العلمية، إلَّا أن دنو همتهم يمـحق مواهبهم، ويزيـل بهـاء نبوغهم، فتجـدهم يقنعـون بيسيـر المعلومـات، ويأنفون من القراءة والمطالعة، ويتشاغلون عن الطلب والتحصيل.

وهؤلاء سرعان ما تنزع ملكيـة قدراتهم، وتسلب بركة أوقـاتهم. ذلك بـأن كفر النعمـة مؤذن برحيلهـا، كما أن شكرها مؤذن بمزيدها.

قال الفرّاء ــ رحمه الله تعالى ــ: لا أرحم أحداً كـرحمتي لـرجلين: رجـل يـطلب العلم ولا فهم لـه. ورجل يفهم ولا يطلبـه. وإني لأعجب ممن في وسعه

أن يطلب العلم ولا يتعلم[١].

وقال أبو الفرج ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ تعليقاً على قول أبي الطيب المتنبي:

ولم أرَ في عيوب الناس عيباً
كنقص القادرين على التمام

ينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه، فلو كان يتصور للآدمي صعود السماوات لرأيت من أقبح النَّقَائِصِ رضاه بالأرض.

ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد، رأيت المقصر في تحصيلها في حضيض... والسيرة الجميلة عند الحكماء: خروج النفس إلى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل.

قال: وفي الجملة لا يتركُ فضيلةً يمكن تحصيلها إلاَّ حصلها، فإن القنوع حالة الأراذل.

فكن رجلاً رِجْلُهُ في الثّرى
وهامةُ همَّته في الثُّرَيّا

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١٠٣/١).

ولو أمكنك عبور كل أحدٍ من العلماء والزهاد فافعل، فإنهم كانوا رجالاً وأنت رجل، وما قعد من قعد إلَّا لدناءة الهمة وخساستها.

واعلم أنك في ميدان سباقٍ، والأوقات تنتهب، فلا تخلد إلى كسلٍ، فما فات ما فات إلَّا بالكسل، ولا نال من نال إلَّا بالجدّ والعزم. اهـ[1].

فيا من آنس من نفسه علامة النبوغ والذكاء لا تبغ عن العلم بدلاً، ولا تشتغل بسواه أبداً، فإن أبيت فأجبر الله عزاءك في نفسك، وأعظم أجر المسلمين فيك، ما أشدّ خسارتك، وأعظم مصيبتك.

دع عنك ذكر الهوى والمولعين به
وانهض إلى منزلٍ عالٍ به الدُّرر
تسلو بمربئه عن كل غالية
وعن نعيم لدنيا صفوه كدر
وَعَنْ نَدِيْمٍ بِهِ يَلْهُوْ مُجَالِسُهُ
وعن ريَاضٍ كَسَاهُ النَّوْرُ والزَّهَرُ

---

(١) من «صيد الخاطر»، ص ١٥٩ ـ ١٦١.

انْهَضْ إلى العِلْمِ في جِدٍّ بلا كَسَلٍ
نُهُوْضَ عَبْدٍ إلى الخيراتِ يَبْتَدِرُ
واصبر على نيله صبرَ المجدِّ له
فليس يدركه من ليس يصطبر[1]

وإن من أنفع الأمور التي تعين على علوِّ الهمة: النظرَ في سير السلف ـ رضي الله عنهم ـ فإن أحوالهم غايةُ الكمال علماً وعملاً، فإذا ما رآها الطالب ازدرى نفسه، وقلَّ عملُهُ في عينه، فسعى لِلُّحوق بالقوم، والتشبه بهم، ومن تشبه بقومٍ فهو منهم.

قال ابن الجوزي:

فاللَّهَ اللَّهَ عليكم بملاحظة سير السلف، ومطالعة تصانيفهم، وأخبارهم، فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم.

(١) من قصيدة للشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ الفتاوى، ص ٦٤٧.

قال: وليكثر من المطالعة، فإنه يرى من علوم القوم، وعلو هممهم ما يشحذ خاطره، ويحرك عزيمته للجدّ. اهـ[1].

*
**

(١) بتصرف من «صيد الخاطر»، ص ٤٤٠.

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

العائق التاسع والعاشر
التسويف والتّمنّي

التسويف: التأخير والمدافعة[1] يقال: سَوَّف الأمر، إذا قال: سوف أفعل[2].

ويطلق التسويف على الأماني. يقال: فلانٌ يقتات السَّوْف: أي يعيش بالأماني. قال الكميت:

وكان السَّوْفُ للفتيان قوتاً
تعيش به، وهنِّئتِ الرَّقوبُ[2]

والتمنّي: حديث النفس بما يكون ــ مستقبلاً ــ وما لا يكون ــ أي مستحيلاً ــ وقيل: إرادة تتعلق بالمستقبل[3].

---

(١) مجمل اللغة، لابن فارس (٢/ ٤٧٩).
(٢) أساس البلاغة، ص ٢٢٠، ط. دار المعرفة ــ بيروت.
(٣) فيض القدير، للمناوي (١/ ٣١٩).

والتسويف والتمنّي داءانْ خطيرانْ، يفسدانِ القَلْب والوقت، ويعرجانِ بالمرء إلى عالم الخيال.

أما التسويفُ: فصفةُ بليد الحسِّ، عديمِ المبالاة. كلَّما همَّتْ نَفْسُهُ بخير، عاقها بـ «سوف» و «سأعمل» حتى يفجأهُ الموتُ فيقول:

﴿ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾.

فعلى طالب العلم أن يتنزَّه عن هذه المنقصة، ويبادر بالأعمال، عملاً بقوله تعالى:

﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾..

﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

فهو أعرف الناس بقيمة الوقت، وأولاهم بالانتفاع به كلِّه.

وقد قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر ــ رضي الله عنهما ــ:

«كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل».

وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[1].

قال ابن الجوزي:

ومن أجال على خاطره ذكر الجنة التي لا موت فيها، ولا مرض، ولا نوم، ولا غمّ، بل لذاتها متصلة من غير انقطاع، وزيادتها على قدر زيادة الجد ههنا: انتهب هذا الزمان، فلم يَنَمْ إلاَّ ضرورة، ولم يغفل عن عمارة لحظة. اهـ[2].

أما التمني: فمنه ممدوحٌ، ومنه مذمومٌ.

أما الممدوح: فهو أن يتمنى فعل الخيرِ المندوبِ، ولا يستطيعه، وله ثلاثة شروطٍ:

الأول: العزم على الفعل متى ما قدر عليه.

الثاني: كونه في حدود الشرعيات، كتمني بناءِ مسجدٍ، ونحوه.

---

(١) رواه البخاري (١١/ ١٩٩).

(٢) من «صيد الخاطر»، ص ٣٢٣.

الثالث: أن لا يكون ديدن الإنسان[1].

وأما المذموم فقد عبّر عنه ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في شرح كلام شيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي عن مفسدات القلب، فقال: المفسد الثاني من مفسدات القلب: ركوبه بحر التمني، وهو بحرٌ لا ساحل له. وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم، كما قيل:

إذا تمنيتُ بتُّ الليلَ مغتبطاً

إن المنى رأسُ أموالِ المفاليس

وبضاعةُ رُكّابِهِ: مواعيد الشيطان، وخيالات المحال والبهتان. فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة، والخيالات الباطلة، تتلاعب براكبه، كما تتلاعب الكلاب بالجيفة. وهي بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية، ليست لها همة تنال بها الحقائق الخارجية، بل اعتاضت عنها بالأماني الدنية... قال: فيتمثّلُ المتمنِّي صُوْرَةَ مَطْلُوْبِهِ في نفسه، وقد فاز بِوَصْلها،

---

(١) فصلتُ أدلة هذه الشروط في رسالةٍ لي في التمني.

والتذّ بالظفر بها، فبينما هو على هذه الحال، إذ استيقظ فإذا يده والحصير. اهـ[1].

وما أحسن ما قال أبو تمام:

من كان مرعى عزمه وهمومه
روضَ الأماني لم يزلْ مهزولا

وقد قيل لبعض الحكماء: من أسوأ الناس حالاً؟ قال: من بعدتْ همته، واتسعت أمنيته، وَقَصرَتْ آلته، وقلّت مقدرته.

وقال آخر: تجنبوا الأماني، فإنها تذهب ببهجة ما خُوِّلتم، وتستصغرون بها نعمة الله عليكم[2].

فليتجنب الطالبُ هذا المرضَ، وليحذر تمكُّنَهُ منه، فإنّه كالسرطان الفتاك، قلَّ من يبرأ منه.

فكمَّن صريعٍ له لا يفيقُ من سباته، ولا يفتئتُ من قيوده، أعاذنا الله وإياكم منه، وأشغلنا بالعمل

---

(١) مدارج السالكين (١/٤٥٦ ـ ٤٥٧).

(٢) آداب الدنيا والدين، ص ٣٠٨.

الصالح عن الأماني الكاذبة، والخيالات الكاسدة، وأحلام اليقظة، التي تضيعُ الوقتَ، وتخفِّفُ الميزان.

قال الشاعر:

تَمَنَّيْتَ أنْ تُمْسِيْ فقهياً مُنَاظِراً
بِغَيْرِ عَنَاءٍ والجُنُوْنُ فُنُوْنُ

وهذه أبيات من قصيدة لي في هذا الموضوع:

واهاً لأيَّامِ الدِّراسَةِ إنَّها
تَكسُو الفُؤَادَ سَعَادةً وتُنَفِّسُ
والمرءُ في زَمَنِ الصِّبَا مُتَوَثِّبُ
خيلاً تُغِيْرُ على الخَيَالِ وتَنْهَسُ
حتى إذا بَلَغَ المَدَىٰ وتكشَّفَتْ
أَحْلَامُهُ عن سَوءةٍ لا تُحْبَسُ
وَجَدَ المَعِيْشَةَ صَعْبَةً لا تُقْتَنَىٰ
بالأُمْنِيَاتِ ولا الزَّمَانُ يُؤَنِّسُ
فاخْتَرْ لنَفْسِكَ غيرَ أَوْدِيَةِ المُنَى
فالعَطْبُ في وادي المُنى يَتَرَأَّسُ

***

شذرات من كلام العلماء
عن: العلم وطلبه

١ ـ قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في تخشعه، وبصره، ولسانه، ويده، وصلاته، وزهده.

وإن كان الرجل ليصيب الباب من أبواب العلم فيعمل به، فيكون خيراً له من الدنيا وما فيها[١].

٢ ـ قال الشافعي ـ رحمه الله ـ العلم علمان: علم الدين، وهو الفقه. وعلم الدنيا وهو الطبّ. وما سواه من الشعر وغيره فعناء وعبث[٢].

٣ ـ قال الأصمعي: إن أخوف ما أخاف على

(١) الجامع (١/ ٦٠).
(٢) الحلية (٩/ ١٤٢).

طالب العلم إذا لم يعرف النحو يدخل في جملة قوله عليه السلام:

«من كذب عليَّ فليتبوأ مقعده من النار»[١].

٤ ـ قال سحنون بن سعيد: أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم فيظن أن الحق كله فيه[٢].

٥ ـ كان بعض الحكماء يقول: نفعنا الله وإياكم بالعلم، ولا جعل حظنا منه الاستماع والتعجب[٣].

٦ ـ قال سفيان الثوري: إذا ترأس الرجل سريعاً أضرّ بكثير من العلم، وإذا طَلَبَ وطَلَبَ: بلغَ[٤].

٧ ـ قال العباس بن المغيرة بن

---

(١) السير (٩/١٧٨).
(٢) الجامع (٢/١٦٥).
(٣) الجامع (٢/١٠).
(٤) الحلية (٧/٨١).

عبد الرحمن، عن أبيه قال: جاء عبد العزيز الدراوردي في جماعة إلى أبي، ليعرضوا عليه كتاباً، فقرأه لهم الدراوردي، وكان رديء اللسان، يلحنُ لحناً قبيحاً، فقال أبي: ويحك يا دراوردي! أنتَ كنت إلى إصلاح لسانك قبل النظر في هذا الشأن أحوجُ منك إلى غير ذلك[1].

٨ ـ قال الزهري ليونس بن يزيد:

(لا تكابر العلم، فإن العلم أودية، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة، فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي)[2].

***

(١) السير (٨/٣٦٨).

(٢) جامع بيان العلم (١/١٠٤).

من آداب المعلمين والمتعلمين[1]

للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

إخلاص النية :

يتعيَّن على أهل العلم من المتعلِّمين والمعلمين أن يجعلوا أساس أمرهم الذي يبنون عليه حركاتهم وسكناتهم الإخلاص الكاملَ، والتقربَ إلى الله تعالى بهذه العبادة التي هي أجل العبادات، وأكملها، وأنفعها، وأعمها نفعاً، ويتفقدوا هذا الأصل النافعَ في كل دقيقٍ من أمورهم وجليل، فإن درسوا أو دارسوا، أو بحثوا أو ناظروا، أو أسمعوا أو استمعوا، أو كتبوا أو حفظوا، أو كَرَّروا دروسَهُمُ الخاصةَ، أو راجعوا عليها أو على غيرها الكتب

(١) هذه الرسالة ضمن «الفتاوى» السعدية، وقد جعلتُ لها عناوين لتقريبها.

الأخرى، أو جلسوا مجلس علم، أو نقلوا أقدامهم لمجالس العلم، أو اشتروا كتباً، أو ما يعين على العلم، كان الإخلاصُ لله، واحتسابُ أجره وثوابه ملازماً لهم، ليصير اشتغالهم كلُّه قُوَّةً وطاعةً، وسيراً إلى الله، وإلى كرامته، وليتحققوا بقوله ﷺ:

«**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة**»[1].

فكل طريق حسي أو معنوي يسلكه أهل العلم يعين على العلم أو يحصله، فإنه داخل في هذا.

طريقة الطلب:

ثم بعد هذا يتعيَّن البداءة بالأهم فالأهم من العلوم الشرعية، وما يعين عليها من علوم العربية. وتفصيل هذه الجملة كثير معروف يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص.

وينبغي أن يسلك أقرب طريق يوصل إلى المقصود الذي يطلبه.

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٤/ ٢٠٧٤) عن أبي هريرة.

وأن ينتقي من مصنفات الفن الذي يشتغل فيه أحسنها وأوضحها، وأكثرها فائدة، ويجعل جلَّ همه واشتغاله بذلك الكتاب حفظاً عند الإمكان، أو دراسة تكرير بحيث تصير معانيه معقولة في ذهنه محفوظة، ثم لا يزال يكرر ما مر عليه ويعيده.

ما ينبغي على العالم لتلميذه:

وعلى المعلم أن ينظر إلى ذهن المتعلم، وقوة استعداده أو ضعفه، فلا يدعه يشتغل بكتاب لا يناسب حَالَهُ، فإن هذا من عدم النصح، فإن القليلَ الذي يفهمه ويعقله خيرٌ من الكثير الذي هو عرضة لعدم الفهم وللنسيان.

وكذلك يلقي عليه من التوضيح والتقرير لدرسه بقدر ما يتسع فهمه لإدراكه. ولا يخلط المسائل بعضها ببعض.

وينبغي أن لا ينتقل من نوع من أنواع المسائل إلى نوع آخر حتى يتصور، ويحقق السابق، فإنه درك للسابق، وبه يتوفر الفهم على اللاحق.

فأما إذا أدخل المسائل والأنواع بعضها ببعض قبل فَهْمِ المتعلِّم، فإنه سبب لإضاعة الأول، وعدم فهم اللاحق، ثم تتزاحم المسائل التي لم يحققها على ذهنه فيَمَلُّها، ويضيق عطنه عن العود إليها، فلا ينبغي أن يهمل هذا الأمر.

وعلى المعلم النصح للمتعلم بكل ما يقدر عليه من التَّعْلِيْمِ، والصبرُ على عدم إدراكه، وعلى عدم أدبه، وجفائه، مع شدة حرصه وملاحظته لكل ما يقوِّمه ويهذبه ويحسن أدبه.

لأن المتعلم له حق على المعلم، حيث أقبل على الاشتغال بالعلم الذي ينفعه وينفع الناس، وحيث توجه للمعلم دون غيره، وحيث كان ما يحمله من العلم عن المعلم هو عين بضاعة المعلم، فيحفظها وينمِّيها، ويتطلب بها المكاسب الرابحة، فهو الولد الحقيقي للمعلم الوارث له، قال تعالى:

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [سورة مريم: الآية ٦].

والمراد: وراثة العلم والحكمة.

فالمعلم مأجور على نفس تعليمه، سواء أفهم المتعلم أو لم يفهم، فإذا فهم ما علمه، وانتفع به بنفسه، ونفع غيره، كان أجراً جارياً للمعلم ما دام ذلك النفع متسلسلاً متصلاً. وهذه تجارة بمثلها يتنافس المتنافسون.

فعلى المعلم أن يسعى سعياً شديداً في إيجاد هذه التجارة وتنميتها، فهي من عمله، وآثار عمله. قال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾

[سورة يس: الآية ١٢].

فما قدموا: ما باشَرُوْا عمله، وآثارهم: ما ترتب على أعمالهم من المصالح والمنافع، أو ضدها، في حياتهم وبعد مماتهم.

وينبغي أن يرغِّب المتعلم بكلِّ طريق، وينشطه، ولا يُمِلَّه بإِشْغَاله بما يعسر على فهمه من أنواع العلم ومفرداته.

آداب الطـالب:

وعلى المتعلم أن يوقِّر معلمه، ويتأدب معه غايةَ ما يقدر عليه؛ لما له من الحق العام والخاص.

حقّ العالم العام:

أمـا العـام: فـإن معلم الخيـر قـد استعـد لنفـع الخلق بتعليمــه وفتــواه، فحـقــه على الـنــاس حق المحسنين، ولا إحســان أعظم وأنفــع من إحســان من يرشدُ النـاسَ لأمر دينهم ويعلمهم مـا جهلوا، وينبههم لمـا عنه غفلوا، ويحصـل من الخيـر وانقمـاع الشـر، ونشـر الدين والمعـارف النافعـة ما هـو من أنفـع شيء للموحدين، ولمن أتى مِنْ بعدهم من ذريتهم وغيرهم، فلولا العلم كان الناس كـالبهائم في ظلمـة يتخبطون. فهـو النور الـذي يُهتـدى بـه في الـظلمـات، والحيـاة للقلوب والأرواح والدين والدنيا، والبلد الذي ليس فيه من يُبَيِّن للناس أمورَ دينهم، ويرشدهم لما ينتابهم مما هم في غـــايـة الضــرورة إليــه، قــد فَقَــد أهله من ضروراتهم ومصالحهم ما يضر فقده بدينهم ودنيـاهم.

فمن كـــان هـذا إحســـانـه، وأثـــره على الخلق كيف لا يجب على كــل مسلم محبتـه وتــوقيـره، والقيــام بحقوقه؟!

حقّ العالم الخاص:

وأما حقه الخاص على المتعلم، فَلِمَا بَـذَلَهُ من تعليمـه، والحرص على مـا يرشـده ويوصله إلى أعلى الـدرجات، فليس نفـع الآباء والأمهـات نـظيـراً لنفـع المعلمين المـربين للنـاس بصغـار العلم قبـل كبـاره، البـاذلين نفائس أوقـاتهم، وصفوة أفكـارهم في تفهيم المسترشدين بكل طريق ووسيلة يقدرون عليها.

وإذا كـان من أَحْسَنَ إلى الإنسان بهـديَّةٍ مـاليـة ينتفع بها ثم تزول وتـذهب له حق كبير على المحسن إليه، فما الظن بهدايا العلم النافـع الكثيرة المتنـوعة، الباقي نفعها مادام حياً وبعد مماته، المتسلسل بحسب حالِ تلك الهدايا، فحينئـذٍ يعرف أن لـه من الحق والتوقيـر وحسن الأدب معه والوقوف مع إشارته، وعدم الخروج عما أشار إليه مما ينفعه من الأمور التي قد جربهـا وهو

أعـرف بها منـه من كيفيـات التعليم ونحـوهـا مـا ليس لغيره.

احتـرام العالـم:

وليجلس بين يديه متـأدباً، ويـظهر غـاية حـاجته إلى علمه، ويدعو له حاضراً وغائباً، وإذا أتحفه بفائدة أو توضيح لمشكل، فلا يظهر أنـه قد عـرفه قبله، وإن كان عارفاً له، بـل يصغي إليه إصغـاء المتطلب بشـدة إلى الفائدة. هذا فيما يعـرفه، فكيف بمـا لم يعرفـه، ولهـذا كـان هـذا الأدب مستحسنـاً مـع كـل أحـد في العلوم والمخاطبات في الأمور الدينية والدنيوية.

العمل إذا أخطأ المعلم:

وإذا أخطأ المعلم في شيء فلينبهه بـرفق ولطف بحسب المقام، ولا يقول له: أخطأت، أو ليس الأمـر كمـا تقول، بـل يأتي بعبـارة لطيفـة يدرك بهـا المعلم خطأه من دون أن يتشوش قلبه، فإن هـذا من الحقوق اللازمة، وهـو أدعى إلى الوصـول إلى الصواب، فـإن

الـرد الذي يصحبـه سوء الأدب وإزعـاج القلب، يمنع من تصور الصواب ومن قصده.

الرجوع عن الخطأ:

وكمـا أن هذا لازم على المتعلم، فعلى المعلم إذا أخطأ أن يرجع إلى الحق، ولا يمنعه قـول قالـه ثم رأى الصواب في خلافـه من مراجعـة الحق والرجـوع إليـه، فإن هـذا علامـة الإنصـاف والتـواضـع للحق، فالواجب اتبـاع الصواب، سـواء جاء على يـد الصغير أو الكبير.

ومن نعمة الله على المعلم أن يجد من تـلاميذه من ينبهه على خطئـه، ويرشـده إلى الصواب، ليـزول استمـراره على جهله، فهـذا يحتـاج إلى شكـر لله تعالى، ثم إلى شكر من أجرى اللَّهُ الهدى على يديه، متعلماً كان أو غيره.

قول العالم: الله أعلم فيما لا يعلم:

ومن أعـظم ما يجب على المعلمين أن يقـولـوا لمـا لا يعلمـونـه: الله أعلم، وليس هـذا بنـاقص

لأقدارهم، بل هذا مما يزيد قدرهم، ويستدل به على كَمَالِ دينهم، وتحرِّيهم للصواب.

فوائد التوقف عما لا يعلم:

وفي توقفه عما لا يعلم فوائد كثيرة.

منها: أن هذا هو الواجب عليه.

ومنها: أنه إذا توقف وقال: الله أعلم، فما أسرع ما يأتيه علم ذلك من مراجعته أو مراجعة غيره، فإن المتعلم إذا رأى معلمه قد توقف جدَّ واجتهد في تحصيل علمها، وإتحاف المعلم بها، فما أحسن هذا الأثر.

ومنها: أنه إذا توقف فيما لا يعرف، كان دليلاً على ثقته وأمانته وإتقانه فيما يجزم به من المسائل، كما أن من عُرف منه الإقدام على الكلام فيما لا يعلم كان ذلك داعياً للريب في كل ما يتكلم به، حتى في الأمور الواضحة.

ومنها: أن المعلم إذا رأى منه المتعلمون التوقف فيما لا يعلم كان ذلك تعليماً لهم وإرشاداً

لهذه الطريقة الحسنة، والاقتداء بالأحوال والأعمال أبلغ من الاقتداء بالأقوال.

المناظرة بين المتعلمين:

ومما يعين على هذا المطلوب أنه يفتح المعلم للمتعلمين باب المناظرة في المسائل والاحتجاج، وأن يكون القصد واحداً، وهو اتباع ما رجحته الأدلة، فإنه إذا جعل هذا الأمر نَصْبَ عينيه وأعينهم، تنورت الأفكار، وعرفت المآخذ والبراهين، واتبعت الحقائق، وكان القصد الأصلي معرفة الحق واتباعه.

ذمّ التعصب:

فالحذر الحذر من التعصب للأقوال والقائلين، وهو أن يجعل القصد من المناظرة والمباحثة نصر القول الذي قاله، أو قاله من يعظِّمه، فإن التعصب مُذهِبٌ للإخلاص، مزيل لبهجة العلم، مُعْمٍ للحقائق، فاتحٌ بابَ الحقدِ والخصام الضارِ، كما أن الإنصاف هو زينة العلم، وعنوان الإخلاص والنصح والفلاح.

التحذير من طلب العلم للدنيا:

ثم الحذر الحذر من طلب العلم للأغراض الفاسدة والمقاصد السيئة، من المباهاة، والمماراة، والرياء، والسمعة، وأن يجعله وسيلة للأمور الدنيوية والرياسة، فليست هذه حال أهل العلم الذين هم أهله في الحقيقة. ومن طلب العلم أو استعمله في أغراضه السيئة فليس له في الآخرة من خلاق.

العَمَل بالعِلم:

ومن أعظم ما يتعيَّن على أهل العلم الاتصاف بما يدعو إليه العلم من الأخلاق، والأعمال، والتعليم، فهو أحق الناس بالاتصاف بالأخلاق الجميلة، والتخلِّي من كل خلق رذيل، وهم أولى الناس بالقيام بالواجبات الظاهرة والباطنة، وترك المحرمات لما تميزوا به من العلم والمعارف التي لم تحصل لغيرهم، ولأنهم قدوة للناس، والناس مجبولون على الاقتداء بعلمائهم شاؤوا أم أبوا في كثير من أمورهم، ولأنهم يتطرق إليهم من الاعتراضات

والقوادح عندما يتركون ما يدعو إليه العلم أعظم مما يتطرق على غيرهم.

وأيضاً فكان السلف يستعينون بالعمل بالعلم على العلم، فإن عمل به استقر ودام، ونما وكثرت بركته، وإن ترك العمل به ذهب أو عدمت بركته، فَرُوْحُ العلم وحياته وقوامه إنما هو بالقيام به عملاً، وتخلقاً، وتعليماً، ونصحاً، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم.

طريقة التعليم:

وينبغي سلوك الطريق النافع عند البحث تعلماً وتعليماً، فإذا شرع المعلم في مسألة وضَّحها، وأوصلها إلى أفهام المتعلمين بكل ما يقدر عليه من التعبير، وضرب الأمثال، والتصوير والتحرير.

ثم لا ينتقل منها إلى غيرها قبل تفهيمها للمتعلمين، ولا يدع المتعلمين يخرجون من الموضوع الذي لم يتم تعليمه وتقريره إلى موضوع آخر حتى يحكموه ويفهموه، فإن الخروج من الموضوع إلى

غيره قبل الانتهاء منه يحرم الفائدة كما تقدم.

تعاهد محفوظات المتعلمين:

وينبغي تعاهد محفوظات المتعلمين ومعلوماتهم، بالإعادة، والامتحان، والحث على المذاكرة، والمراجعة، وتكرار الدرس، فإن التعلم بمنزلة الغرس للأشجار، والدرس والمذاكرة والإعادة بمنزلة السقي لها، وإزالة الأشياء الضارة عنها، لتنمو وتزداد على الدوام.

أدب الزمالة:

وكما أن على المتعلم توقير معلمه، والأدبَ معه، فكذلك أقرانه، والمتعلمون معه عليه من مراعاة حقوقهم، والأدب معهم أعظم من حقوق الأصحاب بعضهم على بعض، فالصحبة في طلب العلم تجمع حقوقاً كثيرة، لأن لهم حقَّ الأخوة، والصحبة، وحقوقَ الانتماء إلى معلمهم، وأنهم بمنزلة أولاده، وحقاً لنفع بعضهم بعضاً.

ولهذا ينبغي أن لا يدع ممكناً من نَفْعِ مَنْ يَقْدِرُ

على نَفْعِهِ منه بتعليمه ما يجهل، والبحث معه للتعاون على الخير وإرشاده لما فيه نفعه.

وينبغي أن يكون اجتماعهم في كلِّ وقت غنيمة يتعلم فيها القاصر ممن هو أعلى منه، ويعلِّم العارف غيرَ العارفِ، ويتطارحون من المسائل النافعة، وليجعلوا همهم معقوداً على ما هم بصدده.

مضار الاشتغال بالناس:

وليحذروا من الاشتغال بالناس، والتفتيش عن أحوالهم، والعيب لهم، فإن ذلك إثم حاضر، والمعصية من أهل العلم أعظم منها من غيرهم، ولأن غيرهم يقتدي بهم، ومن كان طبعه الشر من غيرهم جعلهم حجةً له، ولأن الاشتغال بالناس يضيِّع المصالح النافعة، والوقت النفيس، ويذهب بهجة العلم ونوره.

القناعة باليسير:

واعلم أن القناعة باليسير والاقتصاد في أمر المعيشة مطلوب من كل أحد، لا سيما المشتغلون

بالعلم، فإنه كالمتعيِّن عليهم، لأن العلم وظيفة العمل كله أو معظمه، فمتى زاحمته الأشغال الدنيوية والضروريات حصل النقص بحسب ذلك، والاقتصاد والقناعة من أكبر العوامل لحصر الأشغال الدنيوية، وإقبال المتعلم على ما هو بصدده.

بثّ العلم:

ومن آداب العالم والمتعلم النصح وبث العلوم النافعة بحسب الإمكان حتى لو تعلم الإنسان مسألة واحدة، ثم بثَّها كان من بركة علمه، ولأن ثمرات العلم أن يأخذه الناس عنك، فمن شح بعلمه، مات علمه بموته، وربما نسيه وهو حي، كما أن من بث علمه، كان حياة ثانية، وحفظاً لما علمه، وجازاه الله من جنس عمله.

تأليف القلوب:

ومن أهم ما يتعيَّن على أهل العلم معلمين أو متعلمين، السعي في جمع كلمتهم، وتأليف القلوب على ذلك وحسم أسباب الشر والعداوة

والبغضاء بينهم، وان يجعلوا هدا الامر نصب اعينهم، يسعون له بكل طريق، لأن المطلوبَ واحدٌ، والقصدَ واحدٌ، والمصلحةَ مشتركةٌ، فيحققوا هذا الأمر بمحبة كل من كان من أهل العلم، ومن له قدم فيه واشتغال أو نفع؛ ولا يَدَعُوْنَ الأغراضَ الضارةَ تملكُهُمْ وتمنعهم من هذا المقصود الجليل، فَيُحِبّ بعضهم بعضاً، ويذبُّ بعضهم عن بعض، ويبذلون النصيحة لمن رأوه منحرفاً عن الآخر، ويبرهنون على أن النزاع في الأمور الجزئية التي تدعو إلى ضدِّ المحبة والائتلاف لا تُقَدَّم على الأمور الكُلّية التي فيها جَمْعُ الكلمة.

ولا يَدَعُوْنَ أعداء العلم من العوام وغيرهم يتمكنون من إفسادِ ذاتِ بينهم، وتفريق كلمتهم.

من فوائد الائتلاف:

فإن في تحقيق هذا المقصد الجليل والقيام به من المنافع ما لا يعدُّ ولا يحصى، ولو لم يكن فيه إلَّا أن هذا هو الدين الذي حثَّ عليه الشارع بكل طريق، وأعظم من يلزم القيام به أهله، وأنه من أعظم الأدلة

على الإخلاص والتضحيه اللذين هما روح الدين، وقطب دائرته، وأن بهذا الأمر يَتَّصِفُ العبدُ أن يكون من أهل العلم الذين هم أهله الذين ورد في الكتاب والسنة من مدحهم والثناء عليهم ما لا يتسع هذا الموضع لذكره.

وفيه أيضاً من تكثير العلم، وتوسعة الوصول إليه، وتنوع طرقه ما هو ظاهر، فإن أهل العلم إذا كانت طريقتهم واحدة تمكن أن يتعلم بعضهم من بعض، وأن يعلم بعضهم بعضاً، وإذا كان كل طائفة منهم منزوية عن الأخرى، منحرفة عنها، انقطعت الفائدة، وحَلّ محلها ضدها، مِنْ حصول البغضاء، والتعصب، والتفتيش من كل منهما عن عيوب الطائفة الأخرى وأغلاطها، والتوسل به للقدح، وكل هذا منافٍ للدين والعقل، وَلِمَا عليه السلف الصالح، حيث يظنه الجاهل من الدين.

فالموفق تجده ناصحاً لله بتوحيده، والقيام بعبوديته ظاهراً وباطناً، بإخلاص واحتساب، وتكميلاتها بحسب وسعه.

وناصحاً لكتاب الله بالإيمان بما اشتمل عليه، والإقبال على تعلُّمه، وتعلم ما يتعلق به ويتفرع عنه من علوم الشريعة.

وناصحاً لرسوله ﷺ بالإيمان بكل ما جاء به من أصول الدين وفروعه، وتقديم محبته على كل محبة بعد محبة الله، وتحقيق متابعته في شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

وناصحاً لأئمة المسلمين من ولاتهم وعلمائهم ورؤسائهم في محبة الخير لهم والسعي في إعانتهم عليه قولاً وفعلاً ومحبَّةِ اجتماعِ الرعية على طاعتهم، وعدم مخالفتهم الضارة.

وناصحاً لعامة المسلمين، يحبُّ لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويسعى في إيصال النفع إليهم بكل ممكن، ويصدِّق ظاهرُه باطنَهُ، وأقوالُه أفعالَه، ويدعو إلى هذا الأصل العظيم والصراط المستقيم، فنسأله تعالي أن يرزقنا حبه وحبَّ من يحبه، وحب العمل الذي يقربنا إلى حبه، ويهب

لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب.

وصلَّى الله على محمد وسلَّم[1].

***

---

(١) تمّت رسالة الشيخ عبد الرحمن بن سعدي.

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

• • •



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس